**الشعراء السودانيون شأنهم شأن غيرهم من الشعراء العرب الذين تناولوا قضية فلسطين والقدس في أشعارهم، فهم يواكبون سائر القضايا التي تهم أمتهم العربية والإسلامية. وقد احتلت هذه القضية المكان الأبرز بين القضايا العربية التي حفل بها الشعر السوداني منذ القديم.**

د. النوراني عبدالكريم جبير* - السودان

# القدس

## في ديوان الشاعر الهادي آدم

القدس، والمسجد الأقصى، ومسجد قبة الصخرة من أقوى عوامل الارتباط بين الشعوب الإسلامية: فهي رموز الوحدة والعزة والإرث التاريخي الثمين، والقدس تلك المدينة المتغلغلة في وجدان الشعوب، وهي التي تضع فلسطين في حدقات العيون، وها هو ذا الشاعر الهادي آدم يستغل حادثة إغراق الغواصة الإسرائيلية «إيلات» ليتحدث عن قضية القدس ومأساة فلسطين حيث يقول [1].

إيلات يا كدر القلوب وسحنة الوجه الكئيب
يا كوكب النحس المطل على مشارف تل أبيب [2]
مدي الجراح وبلغي الأمم المحبة للحروب
أن العروبة أجرمت في حق فاتنة لعوب [3]
أما انتزاع القدس من أيدي الهلال أو الصليب
ودم القنيطرة المطل كأنه شفق الغروب [4]
وربوع غزة غارقات في الدخان وفي اللهيب
وقنابل النابالم تحرق قلب مردان وشيب
فالكل حق لليهود وليس بالأمر الغريب

هذه الغواصة اللعينة تمثل قبح وجه إسرائيل الكئيب، وظهورها على المياه العربية المصرية كان نحساً على إسرائيل، و إغراقها في المياه الإقليمية المصرية تعد لطمة هائلة وطعنة نجلاء مؤلمة، يشمل ألمها إلى جانب إسرائيل كل الدول الغاشمة. والأمة العربية قد أغرقت هذه الغواصة التي تعتزون بها وتحرصون عليها، وهو هنا يبرز هذه الغواصة في

* أستاذ الأدب والنقد المساعد بكلية الآداب ورئيس قسم اللغة العربية، جامعة الفاشر ـ السودان.

هيئة فتاة جميلة فياضة الأنوثة تلعب بعقول الرجال، ويحرص أهلها على سلامتها وصيانتها، وفي قوله (العروبة أجرمت) إشارة إلى إغراقها، وهو تعبير يخفي خلفه السخرية والتندر.

ثم يلتفت الشاعر إلى أحداث ماثلة، وهموم قائمة بالقلب، وهو القدس الذي لا يزال أسيراً في قبضة اليهود، ويعلن في عزم وإصرار على أن استرداده قد بات قريباً، ثم يشير الشاعر إلى الفظائع التي ارتكبها اليهود وما زالت ترتكبها في حق المدن الفلسطينية، وكيف أن القصف الإسرائيلي الرهيب يتوالى عليها بلا رحمة، ويحصد أرواح الأطفال والنساء والشباب والعجزة.

وذكرى القدس عند شاعرنا كثيراً ما يأتي مرتبطاً بالأحداث العربية، فالقدس حاضر في كل موقف يهز العرب والمسلمين، فهو أمل لا يخبو ناره، وبرق يلمع متوهجاً في كل سحابة حدث تظلل سماء العرب.

وبعد حرب النكسة المشهورة (١٩٦٧م) تداعت صروح الآمال في تحرير القدس من رجس الغزاة المستبدين، والأمل لا يزال قوياً في نفس شاعرنا الذي ما فتئ يقرر حقيقة استرداد القدس، وسائر الأراضي المحتلة، وفي هذا يقول الشاعر [٥].

ظن اليهود وما ظنوا سوى حمق
إن أحرزوا النصر تقليلاً وتمويهاً
بئس انتصاراً لإسرائيل مظهره
في غارة جيش أمريكا يغذيها
و خلفها ذنب الأفعى تعاونها
في كل حرب على الأحرار تذكيها
صبراً فإن لنا غزواً على عجل
يشفي غليل البواكي أو يعزيها
يشنه كل ذي حقد ضغينته
لا شيء غير اقتحام الموت يشفيها

يقول الشاعر: إن اليهود واهمون في غبطتهم بانتصارهم المؤقت في حرب النكسة، وهو انتصار قبيح تسنده أمريكا، ويقف خلفه كل القوى الغاشمة، ولكنه يتوعد العدو بمعركة أخرى فاصلة، تكون الدائرة فيها على إسرائيل، يثأر العرب فيها، يدفعهم في ذلك ضغينة الغضب والرغبة في استرداد الحقوق المستلبة.

والشاعر الهادي آدم عندما يندب فجيعة القدس إنما ينعى على الأمة العربية والإسلامية خنوعها، وجبنها عن تحرير هذه الأرض المقدسة التي خاض فيها أسلافنا حروباً مريرة للدفاع عنها، وتطهيرها من الغزاة المغيرين، فكيف تنام الأمة والقدس والأقصى ما زالتا خارج البيت العربي الإسلامي، يقول شاعرنا[٦]:

إيه يا قدس والحوادث تترى
وشهود الوغى شخوص أمامي
عصفت بالخيال ذكرى صلاح
الدين يرمي العدا بجيش لهام
يصنع المجد من نفوس ترى في
الموت دون الحمى حياة الكرام
لم يساوم ولم يهادن عدواً
بل مضى عزمه مضاء الحسام
عاد بالغار ظافراً يوم عادوا
بأنوف موصولة بالرغام

ثم يوجه الشاعر نصحاً مبصراً إلى أهل القدس فيقول [٧]:

يا فتى القدس لا تصخ لدعي
يسكب السم في كؤوس السلام
أو لداع إلى السلامة معني
ببذل الوعود والأحلام
قل لهم إنني سئمت حياة
لم تكن للقتال أو للصدام
إن خيراً من مهجة تشتريها
من يد الغاصبين كأس الحمام

يحرض الشاعر أبناء القدس المجاهدين بألا يستجيبوا لدعاة السلام، فهم يضعون الموت في شكل الدعوات، بمعنى أن هذا السلام المزعوم وهم وخديعة، بل هي مجرد مسكنات وأحلام أبعد من الثريا، ويدعوهم إلى التمسك بحياة القتال والصدام والنضال، وألا يرضوا في سبيل القدس إلا بالنصر أو شرب كأس المنية، فلا طريق إلى تحرير القدس إلا الجهاد، وبذل الدماء مثلما فعل السلف الصالح مثل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، والقائد صلاح الدين الأيوبي.

ثم يتجه الشاعر ليسرد بعض الأمور المتعلقة بعظمة القدس ومكانتها في نفوس المسلمين، وهو يرمي من ذلك

الهادي آدم

إلى إذكاء نار النخوة بين جوانح العرب حين يستعرض أمامهم جانباً من تاريخ القدس وعظيم مكانته، وطهره فيقول [٨]:

رب إن الحمى حماك وقد أمسى
مباحاً وليس إلاك حام
كاد صرح البراق يهتز ما بين
مصلى رسول الله والمقام
فكأن البراق لم يسلم الصرح
عناناً ولا ثنى من لجام
وكأن العذراء ما أنجبت فيه
غلاماً أكرم به من غلام
ونبياً يكلم الناس في المهد
ويهدي إلى سبيل السلام
جئت بغداد والقريض هدير
يطرد النوم عن عيون النيام
جئت للمربد الجريح وفي
القدس همومي مقيمة واهتمامي [٩]

ثم يدعو الشاعر الشعراء العرب إلى الاهتمام بقضية القدس، فالشعر العربي كان في الماضي يعبر عن هموم الأمة، وكان يذكي في النفوس نيران الثورة والجهاد، وهو هنا يلوم الشعراء العرب على عدم خوضهم في موضوع احتلال القدس، ويضرب لهم مثلاً بأبي الطيب المتنبي: شاعر العراق المشهور الذي اهتم في شعره بنضال سيف الدولة ضد الروم[١٠] يقول الهادي آدم مخاطباً بغداد [١١]:

**إيه يا بغداد يا حفيظة عهد الشعر إذ ضيعوه بين الأنام**
**قد قصدناك حين قلدك الشعر وساماً أعظم به من وسام**
**إنما تخلد الشعوب بمجد الشعر لا السفسطات والأوهام**
**قد سبقت الورى إلى دولة الشعر ومجد من العروبة سام**
**يوم أنجبت للحياة أبا الطيب فرداً في صلحه والخصام**
**كان صناجة المحافل إن هب دعي يلوك هذر الكلام**
**فهبي القدس منك كل جليل من نبيل المداد والأقلام**

يخاطب الشاعر بغداد، فهي التي كانت عش الشعراء، وموئل العربية وحاضرة الخلافة العباسية التي ازدهر الشعر فيها ازدهاراً بعيد المدى، وقد أدت دورها العظيم في اهتمام شعرائها بالقضايا العربية والإسلامية حتى نالت وسام الشرف عبر التاريخ لا مجال فيها للسفسطة والأوهام عند الجد، وقد أنجبت العراق أعظم شعراء العربية، وهو المتنبي الذي لم يدع مصالا لصائل في مواكبة قضايا الأمة والدفع عنها، وكان لا يتوانى متى دعا داعي الجهاد.

ثم يطلب الشاعر من بغداد - في رجاء المستغيث - أن تهب القدس شعراء فحولا، يسكبون المداد النبيل في السيرْ قُدُما بقضية القدس نحو التحرير.

والشاعر عندما يقول هذه الكلمات كأنه يسكب عبرة حرى على أرض القدس، وكأنه يقبض بتراب القدس ملء كفيه وهو جاث على ركبتيه في حنين وألم مثلما يفعل الأبطال الشجعان حين تهزمهم الأقدار، وتضعهم في موضع الضعف والخذلان.

وفي موضع آخر من النص السابق يعلن الشاعر رفضه للأساليب التي ينتهجها العرب في حل قضية القدس، ويرى أنهم لم يسلكوا السبيل الصحيح، والسفينة لاتجري على اليبس، ويقول [١٢] :

**ومللنا بلاغة الخطباء الهوج**
**إذ ينعقون بين الأنام**
**وكرهنا انعقاد مؤتمرات**
**لا ترى في الكفاح غير الكلام**
**خير ما تستطيع أن توسع الأعداء**
**سيلا من نقدها والملام**
**ولكم رحب العدو فحياها**
**مشيدا بحكمة الحكام**

إن دفن الرؤوس في الرمل عار
أقلعت عنه مجفلات النعام
والذي يقبل الإهانة يوماً
عاش خلف الهوان مر الدوام

ويجعل الشاعر من نفسه فلسطينيا مشردا، عاقداً العزم على العودة إلى دياره المقدسة، متحديا كل المصاعب والعراقيل، نابذا بأس المستعمر الدخيل، وهو لن يعود وحده، بل معه جميع اللاجئين والمشردين الفلسطينيين وهي عودة حميدة تحكي الانتصار، والأخوة، والشوق والحرية، وهو يختم كل مقطع بعبارة (غدا سأعود منتصرا.. أعود إليك يا حبي)، وهذا يجدد الأمل في النفوس، ويبعث النخوة في قلب كل عربي مسلم ليحذو حذوه ويسير في ركابه ويقول (١٣).

إذا ما حال ليل الغدر دونك يا منى قلبي
وجاشت حولي الظلماء من درب إلى درب
فإن الفجر قد غنى نشيد غرامك العذب
غداً سأعود منتصرا.. أعود إليك يا حبي

❖ ❖ ❖

أعود وفي يميني إخوتي من مصر والشام
من السودان من أرض الفرات الثائر الدامي
ومن إفريقيا الخضراء حولي كل مقدام
غدا سأعود منتصرا.. أعود إليك يا حبي

وهكذا أبرز شعر الهادي آدم أهمية القدس، وعظمتها في الإسلام، فهي مسرى رسولنا الأكرم صلى الله عليه وسلم، وفيها ولد سيدنا عيسى المسيح عليه السلام، وفيها بعض المقدسات الإسلامية كالمسجد الأقصى، وحائط البراق، ومسجد القبة.

وهكذا كل الشعراء السودانيين أولوا قضية القدس اهتماما كبيرا في أشعارهم، ولو حاولنا استقصاء ذلك لطال بنا المقام، ولذا رأينا أن نكتفي بواحد منهم خوف الإطالة ■

---

**الهوامش**

* الهادي آدم، شاعر سوداني معاصر، ولد في مدينة الهلالية المطلة على النيل الأزرق، جنوبي الخرطوم، عام ١٩٢٧م، وتخرج في كلية دار العلوم بالجامعة المصرية في القاهرة، وقد حصل على درجة الليسانس في اللغة العربية و آدابها.
أصدر عددا من الدواوين الشعرية، هي: (كوخ الأشواق) عام ١٩٦٤م، و (نوافذ العدم) عام ١٩٩٧م، و(عفوا أيها المستحيل) عام ١٩٩٩م، و(سعاد) و هي مسرحية، وقد طبعت مؤسسة أروقة هذه الإصدارات الشعرية في الأعمال الكاملة. ويمتاز شعره بالسهولة، وعذوبة الألفاظ، والبعد عن التعقيد، ومعظم شعره قصائد مكتملة، يتجاوز بعضها الخمسين بيتا. توفي الشاعر عام ٢٠٠٦م.

(١) ديوان الهادي آدم (المجموعة الكاملة)، ص: ٢١٧، إصدار مؤسسة أروقة للعلوم والثقافة، طبعة مؤسسة الصالحاني، سوريا - دمشق، (ط ١)، سنة ٢٠٠م.

(٢) المراد بكوكب النحس: الغواصة الغريقة (إيلات)، تل أبيب: العاصمة الإسرائيلية.

(٣) العروبة: المراد بها مصر؛ إذ إنها في إغراقها لهذه الغواصة تمثل العرب، وتحقق الأماني العربية. أجرمت: ارتكبت جرما. فاتنة لعوب: هي الغواصة إيلات تشبيها لها بغادة جميلة مغرورة.

(٤) القنيطرة: بلدة سورية في الجولان المحتلة.

(٥) ديوان الهادي آدم (المجموعة الكاملة)، ص: ٣٦١.

(٦) المصدر نفسه، ص: ٤٢٩.

(٧) المصدر نفسه، ص: ٤٢٩.

(٨) المصدر نفسه، ص: ٤٣٠.

(٩) المربد: سوق قديم في البصرة ازدهر فيه فن الشعر.

(١٠) راجع سيرة المتنبي في مقدمة ديوان المتنبي، عبد الرحمن البرقوقي ١٣/١ وما بعدها، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، (ط١) سنة ٢٠٠١م.

(١١) ديوان الهادي آدم (المجموعة الكاملة) ص: ٤٣١.

(١٢) المصدر نفسه، ص: ٤٢٨.

(١٣) المصدر نفسه، ص: ٣٧٣.